

الطفل الجزائري في الانتماطات ثورة التحرير الجزائرية

د/ تاونزة محفوظ

جامعة خميس مليانة

مقدمة:

عاش الأطفال الجزائريون كغيرهم من شرائح المجتمع الجزائري أوضاعاً مزرية خلال الفترة الاستعمارية، باعتبارهم أهالي معدومي حقوق المواطنة. ومع اندلاع الثورة الجزائرية ازدادت معاناتهم بسبب الاستعمار الذي جردهم من طفولتهم عندما حول بسمتهم دموعاً، وآمالهم آلاماً، وأفراحهم أحزاناً، واستقرارهم مع عائلاتهم إلى مشردين يجوبون الشوارع والطرق في الداخل، وإلى لاجئين في مراكز خاصة بدول الجوار منعا للتواصل الثوري.

وفي ظل هذه الظروف حاولت الثورة إنقاذ أبنائها من هذه الوضعية الكارثية وإعطاءهم دوراً بارزاً في الكفاح المسلح. في إطار تعبئة الجماهير الشعبية لدعم الثورة.

فما هي مظاهر اهتمام الثورة بالأطفال؟ وما مدى مساهمتهم في الثورة التحريرية؟

أ/ واقع الطفل الجزائري في بداية اندلاع الثورة الجزائرية:

ازدادت معاناة الطفل¹ الجزائري بشكل رهيب² من جراء وحشية فرنسا الاستعمارية فالطفل الجزائري لم يسلم من التشريد والقتل أحياناً على يد المستعمر خاصة في القرى³. بهدف خنق الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى⁴ عن طريق عزلها عن الشعب الجزائري بمختلف فئاته⁵ وفي المدن الكبرى استمر الكولون في استغلالهم للأطفال في الموانئ والورشات التصليحية، وقنوات صرف المياه، وبيع الجرائد⁶، والتنظيف، وغيرها من الأعمال التي مثلت لهم مصادر رزق لعائلاتهم المعوزة⁸. كما عانى الأطفال اللاجئون من صعوبات اجتماعية و صحية خاصة أيام الشتاء القارس⁹.

وحرمت شريحة كبيرة من الأطفال من التعليم بسبب غارات الطائرات وهجمات العدو المفاجئة التي استهدفت المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس حرة لا سيما في الأرياف¹⁰، ما عدا أبناء النخبة التي كانت تستفيد من التعليم المفرنس في المدن الكبرى، وقد وصفت

جريدة المجاهد الثورية¹¹ هذا التعليم بقولها: «كان يفرض عليه (الطفل الجزائري) كل صباح عندما يدخل المدرسة الفرنسية تحية العلم الفرنسي رمز العدوان والاستعمار وبقراً في المدرسة كلمات لا صلة لها بواقعه وتاريخه ويردد حائراً وراء معلمه- أجدادنا الغاليون كانت لها شوارب طويلة... فرنسا وطننا...»¹².

وقد نجم عن حملات الاعتقالات والمداهمات التي شنها العدو ضد السكان العزل بالأرياف، تعرض آلاف الأطفال لصدمات نفسية¹³. إضافة إلى العدد الهائل من الأطفال اليتامى الذين أفرزتهم الثورة التحريرية في مرحلتها الأولى¹⁴.

وقد كتب الباحث بسام العسلي¹⁵ يصف الوضع الكارثي الذي آل إليه أطفال الجزائر في هذه الفترة، قائلاً: «... وقد جاء في تقرير نشرته لجنة الدفاع الوطني لمجلس الشيوخ الفرنسي، تحقيقات عن مآسي مرعبة عاشها هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين فقدوا المأوى والملاجئ، ورأوا بأعينهم آباءهم يعدمون حفرت تلك المناظر المفزعة في مخيلاتهم وقلوبهم، فهم لن ينسوها أبداً. وقد فرت آلاف عديدة من هؤلاء الأطفال مخترقين الحدود التونسية والمغربية، هاربين من وحشية الاستعمار الفرنسي...»¹⁶.

وأمام هذا الوضع اللاإنساني كان لزاماً على الثورة الاهتمام بهذه الشريحة «لا لتعبد لهم البسمة الضائعة فقط ولكن لتحضيرهم رفداً للثورة في حاضرها ومستقبلها القريب والبعيد على نهج آباءهم وأجدادهم»¹⁷ فكيف تم ذلك؟

ب/ اهتمام الثورة بتعليم وتكوين الأطفال:

إن ظروف الحرب واستمرارها، وما نتج عن ذلك من مضاعفة القمع الاستعماري الوحشي الذي طال جميع الجزائريين إضافة إلى الظروف الاجتماعية التي كان الأطفال يعيشونها من حرمان وفقروامية وجهل¹⁷ والاحتكاك الذي وقع بين الأطفال والمجاهدين في الأرياف¹⁸، ولد في هذه الشريحة الوعي الثوري وجعلها تقتنع بضرورة الكفاح المسلح والالتفاف حول الثورة التي أصبحت خير موئل لهم¹⁹ «فانجذبوا إليها بقوة، فصهرتهم وخلقهم وصنعت منهم ثواراً واصلوا المسيرة إلى النهاية، فكانوا أقوى الإمدادات المجندة لها على طول امتداداتها»²⁰.

ومع مر الأيام استطاعت الثورة بمبادئها وأهدافها وقيمتها ونظمها أن تحتضن الأطفال «فتثبت لهم استمرار الحياة، وشبعتهم بالروح الوطنية ورسخت في أذهانهم وطبعت تصرفاتهم بالقيم

العربية والإسلامية وبثت فيهم روح الثورة المسلحة»²¹ وذلك عن طريق التربية والتعليم والتكوين.

بذلت الثورة مجهودات عظيمة لتعليم الأطفال في الداخل والخارج متحدية بذلك الظروف الاستعمارية القاسية. ففي الداخل اهتمت بتعليم أطفال المداشر والدواوير، خاصة طلبة القرآن الذين زودتهم في بعض الأحيان بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم من غارات الطائرات وهجمات الجيش الفرنسي، وبسبب هذه الظروف كانت الثورة تضطر إلى تهريب الأطفال إلى مناطق آمنة، كما أشرفت الثورة على المدارس الحرة التي نجت من الغلق وجعلتها معقلا من معاقليها.²² ولجأت إلى بناء مدارس ومكاتب تحت الأرض لتدريس العربية وتحفيظ القرآن الكريم في الأرياف.²³

وتمكنت الثورة في بعض المناطق (الأوراس) على مستوى المداشر والأرياف من الحفاظ على استمرار تعليم القرآن وتشجيعه في الكتاتيب، كما حولت بعضها إلى مدارس تدرس فيها المواد اللغوية والحساب والتاريخ والجغرافيا ومبادئ الفقه الإسلامي إلى جانب تلقين الأناشيد الثورية حيث تنشد في الاجتماعات دائما التي تلهب عواطف الشباب خاصة منذ صغرهم، وكانت هذه المدارس في بعض الجهات تتولى التدريبات العسكرية.²⁴

وكان المعلمون يقبضون مرتبات شهرية وصلت في بعض المناطق إلى 15000 فرنك قديما²⁵ وقد شمل هذا التعليم الجنسين (الذكور والإناث). واستطاعت بعض الولايات الثورية (الولاية الثالثة) إرسال بعثات طلابية إلى الخارج (البلدان الشقيقة والصديقة)، وكانت طرق العبور هي الممرات التي استعملها جيش التحرير الوطني مشيا على الأقدام، وهي محفوفة بالمخاطر مما أدى إلى استشهاد عدد كبير من الطلبة والمجاهدين.²⁶

كما تكفلت الثورة بتعليم الأطفال اللاجئين في الخارج وهم معظمهم أبناء شهداء، فارين من وحشية الاستعمار الفرنسي، حيث قام في هذا الإطار الاتحاد العام للعمال الجزائريين بتأسيس دارين بالمغرب الأقصى ضمنا مائتي يتيم، ودارين بالمرسى (تونس) ضمنا حوالي مائتين وستين يتيما، ثم أنشأ بعد ذلك دارين للبنات إحداها بتونس والأخرى بطنجة. قامت هذه الدور جميعها بإعداد الأطفال تعليميا باللغتين العربية والفرنسية²⁷ ووفقا لمنهج التعليم الابتدائي الشامل لجميع المواد: الدين، الحساب والجغرافيا والتاريخ والتربية البدنية والرياضية والتعليم المهني (البناء والكهرباء والتجارة والدهن والخياطة والفلاحة).²⁸

وأشرف على هذا التعليم معلمون ومدربون أكفاء، إضافة إلى مرشدين وموجهين قاموا بتوجيه الأطفال وتدريبهم على الحياة العملية، كما سهر على صحة الأطفال طبيب خاص وممرض مساعد له ²⁹.

وقد تمكنت الثورة في أعوام قليلة من احتضان هذه الشريحة وصقلها وترسيخ فيها القيم العربية والإسلامية، وبث فيها الحماس الثوري والوطني، وصنعت منهم ثوارا كان لهم دورا بارزا فيها.

ب- بعض مظاهر استبسال الأطفال أثناء ثورة التحرير الجزائرية:

إن الاحتكاك اليومي للأطفال بالمجاهدين لاسيما في القرى، جعل هذه الشريحة تتأثر بسلوكات ومواقف المجاهدين، حيث أصبحوا يرددون أقوالهم والأناشيد الوطنية والشعارات الثورية، وتولد فيهم الحقد على الاستعمار والحماسة للجهاد ³⁰ ومن ثمة المساهمة في الثورة التي صقلت شخصيتهم وأوجدت لهم دوراً بارزاً في مختلف الأعمال التي تتطلبها الثورة.

فهناك من الأطفال من تكفل بالاتصال والتعاون مع المجاهدين في القرية حين يأوون إلى البيت وتقديم الأكل والشرب لهم وإعداد ما يحتاجون إليه، بالإضافة إلى بث الوعي الثوري في أوساط الأطفال ³¹.

كما قام بعض الأطفال بمهمة التردد للخونة وكشفهم وسرقة الأسلحة ونقلها للمجاهدين في الجبال، ينطبق هذا -على سبيل المثال - على الطفل اليتيم الشهيد سليمان بزويش من قرية تيحراط بأريس (ولاية باتنة) بالأوراس (الولاية الثورية الأولى).

الذي كان معجباً بمواقف المجاهدين وأعمالهم عندما وقعت عينه على أول فوج رآه في الناحية خلال منتصف الخمسينيات، الأمر الذي جعله يتحمس للجهاد ويصر على الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، وكان يصارح أمه بقوله: «أشعر بدافع قوي يحثني على الالتحاق بالثورة والانضمام إلى جيش التحرير... وإني عاقد العزم على القيام بعملية خطيرة أبرهن بها على إخلاصي في حب الوطن والاستعداد للتضحية والفداء...» ³².

ولما سمع في يوم من الأيام أن "من شروط التجنيد كسب السلاح والقيام بعملية ضد الاستعمار أو الخونة"، حاول الالتحاق بصفوف الاستعمار في المراكز الريفية لكن طلبه رفض بحجة صغر سنه، ثم رخص له بالدخول إلى المدرسة الفرنسية كتلميذ يتعلم مبادئ القراءة والكتابة تقدم له المساعدات في الأكل والشرب والنوم ³³. لكن هذا الأخير (سليمان) راح يعمل في الخفاء وبذكاء على إفساد خطة المدرسة المدبرة، وتغيير الاتجاه بتنوير أفكار زملائه وأقرانه

في المدرسة وبث روح الثورة في قلوبهم وإشعارهم بأن ما يسمعون من هؤلاء المعلمين الجنود من عملائهم غير صحيح ويزودهم بأخبار الثورة ومبادئها العادلة وأهدافها النبيلة التي هي في صالح الوطن...»³⁴.

وخلال فترة التحاقه بالمدرسة كان الطفل سليمان تحت نفقة أحد الخونة من سكان القرية المسمى (سعيد) وهو من المجرمين المعروفين بتعذيب المساجين في المعسكر الفرنسي وكان الطفل خادماً لزوجته الخائن وكامل أفراد عائلته، وأصبح موضع ثقته، وظل ينتظر الفرصة المواتية لتنفيذ مخططه دعماً للثورة، حيث اغتنم فرصة خروج الخائن وزوجته من منزله، لحضور حفل اختتامي أقيم في حي الحركة والقومية بالقرية، وكان الطفل قد كلف بحراسة المنزل ومؤانسة الأبناء الصغار للخائن واستغل فرصة انشغال الخونة في الحفل، وقام بسرقة سلاح الخائن من نوع رشاش 49 وفر إلى الجبال حيث التحق بصفوف جيش التحرير الوطني وقاتل ضمنهم لغاية استشهاده سنة 1962³⁵.

كما استعملت الثورة الطفل كأداة لجمع المعلومات، وشراء المؤن ودفعه للقيام بعمليات خطيرة كتفجير القنابل المستهدفة لمراكز العدو ومنشآت الحيوية بالمدن الكبرى، وكثيراً ما كانت هذه الأعمال الثورية للأطفال عاملاً محفزاً للمجاهدين من الناحية النفسية لمضاعفة عملياتهم الفدائية وتوسيعها³⁶.

وأدركت السلطات الاستعمارية الدور الخطير للطفل الجزائري وحاولت التأثير على هذه الشريحة بواسطة مكاتب ضباط الشؤون الاجتماعية (SAS) الذين كانوا يتسللون إلى القاعدة الجماهيرية عن طريق التعليم والعلاج والمساعدات الاجتماعية³⁷. إضافة إلى التهديدات والقمع الاستعماري الذي طال عائلات الأطفال في بعض الأحيان انتقاماً منها، وإرهابها حتى تمنع أبنائها من الاتصال بالثورة³⁸، لكن الاستعمار جنى عكس ما كان يعتقد، فأساليبه الوحشية وجرائمه البشعة لم ترهب الجزائريين بل زادتهم التحاماً بالثورة. هذه الثورة " التي كشفت عن قيم ومواهب كما تكشف النار عن المعادن وتزيل الزيف وتمسح الغبار عن الجيد منها والجميل. أنها صنعت من المعوزين والبؤساء والأطفال أبطالاً زرعوا الرعب واقتضوا مضاجع الغزاة والطفة"³⁹.

خاتمة:

من خلال معالجتنا للموضوع يمكن استخلاص بعض الحقائق والاستنتاجات على النحو الآتي:

- (1)- يعكس اهتمام الثورة بالتعليم وتبنيه، عظمتها وتحديها للنظام الاستعماري، ومن ثمة يمكن اعتبارها مدرسة حقيقية في مجال تربية الأطفال.
- (2)- نجاح الثورة عن طريق التعليم والتكوين في تأصيل شخصية الطفل على القيم الإسلامية والعربية والوطنية الثورية، ومن ثمة إنقاذه من سياسة المسخ الاستعمارية.
- (3)- تضحية الأطفال بتعليمهم في المدارس الفرنسية، وبعائلاتهم التي فقدت مصادر رزقها بصعود أبنائها إلى الجبال والتحاقهم بصفوف الثورة، إضافة إلى ظروف الجوع والضعف والتشرد، كل ذلك لم يحل دون التحاقهم بالثورة، فكل المصائب في اعتقادهم تهنون في سبيل الاستقلال والحرية.
- (4)- ساهم الأطفال مساهمة فعالة في الثورة في كل المراحل التي سلكتها وهو ما يعكس شعبية ثورة التحرير الجزائرية التي لم تقتصر على فئة معينة، بل عبأت جميع الشرائح الجماهيرية
- (5)- أن اهتمام الثورة بتعليم الأطفال كان نتيجة لإدراك رجالها المخلصين لأهمية التربية والتعليم وأثرها في المستقبل، فاستطاعت هذه الشريحة بفضل هؤلاء الرجال إنجاز المستحيل أمام جميع التحديات فساهموا في استرجاع السيادة الوطنية المفقودة منذ 1830 وأصبحوا غداة الحصول على الاستقلال إطارات منهم الأستاذ، الإعلامي، المحامي، الوزير، الطبيب، المهندس ... إلخ.

الاحالات:

1. حسب المادة (01) من اتفاقية الأمم المتحدة (1989) المتعلقة بحقوق الطفل فإن "الطفل هو كل شخص يبلغ من العمر أقل من 18 سنة أنظر: بحث منشور في دورية أكاديمية عسكرية: صدري بن شيكو، "حماية الأطفال أثناء الأعمال العدوانية"، مجلة الجيش، العدد 522، الجيش الوطني الشعبي، الجزائر، جانفي، 2007، ص 42.
2. عن واقع الطفل الجزائري في فترة ما قبل 1954، أنظر: مقال منشور في دورية علمية، أحمد بن نعمان، "دور الشبيبة الجزائرية في معركة التحرير"، مجلة الأصالة، العدد 22، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1974، ص ص 160-169.
3. كتاب: بسام العسلي، المجاهدون الجزائريون، ط1، ط2، (بيروت، دار النفائس 1984-1986)، ص 134.
4. للاستزادة في الموضوع راجع: كتاب: محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج2، (دمشق، اتحاد كتاب العرب، 1999)، ص ص 20-35.
5. أنظر: كتاب: مولود قاسم نايت بلقاسم، ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر، (الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007).

6. على غرار ما كانت تقوم به الجامعات الصحفية الكبرى في المدن، أنظر:
7. Idir Bouaboud, L'écho d'Alger, cinquante ans de vie politique française en Algérie 1912-1961, thèse de doctorat en sciences sociales des idées, des sciences des cultures et des économies, université Paris XII, Juin 1998
8. مقال منشور في صحيفة وطنية ثورية: المجاهد، "اللاجئون الجزائريون يداهم الشتاء"، المجاهد، (اللسان المركزي لجهة التحرير الوطني والثورة الجزائرية)، ال عدد12، الجزائر، 15/11/1957، ص04
9. مقال منشور في جريدة وطنية: محمد الطيب العلوي، "التعليم في الجزائر خلال ثورة التحرير"، جريدة السلام، العدد 1395، الجزائر، 5/06/1996، ص 18.
10. صحيفة ثورية أصدرتها الثورة الجزائرية خلال فترة (1956-1962) لتؤدي دورها وتعبئة الجماهير الشعبية، ومواجهة الدعاية الإعلامية الاستعمارية المضللة، للمزيد حول هذا الموضوع، أنظر: كتاب: زهير احداث، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ت)، ص ص 111-116.
11. للاستزادة في الموضوع راجع: مقال منشور في جريدة تاريخية ثورية: هيئة التحرير لجريدة المجاهد، "أطفالنا يستعدون لبناء جزائر الغد"، جريدة المجاهد، لسان حال جبهة التحرير الوطني والثورة الجزائرية، العدد 44، الجزائر، 14/06/1959، ص 11.
12. مقال منشور في دورية وطنية: الطيب خدام، "الأسرة الثائرة"، مجلة أول نوفمبر، (اللسان المركزي للمنظمة الوطنية للمجاهدين)، العدد 23، الجزائر، أوت 1977، ص ص 28-29.
13. المرجع نفسه
14. كاتب ومؤرخ سوري له العديد من المؤلفات، حول تاريخ الحركة الوطنية وثورة التحرير الجزائرية.
15. بسام العسلي، مرجع سابق، ص 134.
16. حوار تاريخي منشور في دورية وطنية سياسية: عمار بن يونس، "أطفال الجزائر من مدرسة الثورة إلى مدرسة الجهاد"، مجلة المجاهد، (اللسان المركزي لحزب جبهة التحرير الوطني)، العدد 1267، الجزائر، 16 نوفمبر 1984، ص 30.
17. أحمد بن نعمان، مقال سابق، ص ص 187-188.
18. ينطبق هذا على الطفل السعيد هباط المدعو سليمان بزويش من مواليد 29 فيفري 1944 بقرية تيحداط بلدية بوزينة، بمنطقة أريس ولاية باتنة، الذي احتك بأول فوج رآه في الناحية ثم ما فتى، منذ ذلك الحين يردد أقوال المجاهدين والأناشيد الوطنية والشعارات الثورية التي تلقاها منهم وحفظها ثم لقنها لأقرانه بالقرية. ثم التحق بالثورة في الجبال، أنظر: شهادة تاريخية منشورة في دورية وطنية ثقافية، يوسف اليعلاوي، "أطفال وعبرة في قصة"، مجلة الثقافة، السنة 14، العدد 83، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، سبتمبر أكتوبر 1984، ص ص 99-100.
19. رواية تاريخية ثورية منشورة في دورية وطنية ثقافية: ط. نايت سليمان، "صور الثورة في عيون الأطفال"، مجلة المجاهد، (اللسان المركزي لحزب جبهة التحرير الوطني)، العدد 1266، الجزائر، نوفمبر 1984، ص 43.
20. أحمد بن نعمان، مقال سابق، ص 161.
21. مجلة الجيش، العدد 1276، مرجع سابق، ص 30.
22. محمد الطيب العلوي، مقال سابق، ص 18.

23. مقال منشور في صحيفة وطنية ثورية: صحيفة المجاهد، "صور من ثورتنا الاجتماعية في قلب المعركة". (السان المركزي لجهة التحرير الوطني)، المجاهد، العدد 112، (1962/01/08)
24. من التقرير الجهوي للولاية الأولى (الأوراس) المقدم في : الملتقى الوطني الثالث لتسجيل أحداث الثورة من 20 أوت 1956 إلى 1958/12/31، المنعقد بتيزي وزو 7-8/02/1985، ص 106.
25. المرجع نفسه، ص 27.
26. التقرير الجهوي للولاية الثالثة، المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل أحداث الثورة بتيزي وزو 1985، ص 106.
27. أنظر: صحيفة المجاهد، "أطفالنا يستعدون لبناء جزائر الغد"، مقال سابق، ص 11.
28. بسام العسلي، مرجع سابق، ص 136.
29. نفسه.
30. مجلة المجاهد، العدد 1267، (1984/11/16)، مرجع سابق، ص 33.
31. شهادة تاريخية منشورة في دورية وطنية ثقافية: يوسف اليعلاوي، "أطفال وعبرة في قصة"، مجلة الثقافة، العدد 83، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1984، ص 99.
32. مجلة الثقافة، العدد 83، الجزائر، 1984، مرجع سابق، ص 100.
33. أشرف على هذا النوع من المدارس معلمون من الجيش الفرنسي الذين كانوا يقومون بتوجيه أبناء القرية توجيها يتضمن تبرير وجود الجيش الفرنسي في الجزائر وتجريم المجاهدين الذين يسموهم الخارجين عن القانون... أنظر: نفس المرجع، ص 101.
34. المرجع نفسه، ص 102.
35. مجلة الثقافة، العدد 83، 1984، مرجع سابق، ص 103-104.
36. مجلة المجاهد، العدد 1267، الجزائر، (1984/11/16)، مرجع سابق، ص 33.
37. محمد الطيب العلوي، "التعليم في الجزائر خلال ثورة الجزائر"، مقال سابق، ص 18.
38. الطيب خدام، "الأُسرة الثائرة"، مقال سابق، ص 28، 33.
39. عمار بن يونس، حوار تاريخي "أطفال الجزائر من مدرسة الثورة إلى مدرسة الجهاد"، مجلة المجاهد، العدد 1267، 1984/11/16، ص 30.